المبحث الأول

المماثلة الدلالية :

إن الولوج في دراسة المماثلة الدلالية والتي لها دور كبير في الربط بين الآيات بما فيها من أشياء وأحداث وأشخاص وكلمات يستلزم الإنطلاق من بداية السورة، من الآية الأولى، من الجملة الأولى، بل من الكلمة الأولى.

انطلاقا من كون (بنية النص بنية التوازي المستمر)[١]

وبناءً على ذلك فإن "الإبتداء له موقع يرتبط مع بقية عناصر نص السورة برابط عضوي أي أن آيات السورة الكريمة تنبثق عنه وترتبط به، وان معاينة تمتد داخل السورة إمتداداً كخيوط السدى تولد صوراً مرتبطة به، وذلك لشدة الالتئام والانسجام[٢] وابتداء هذه السورة الكريمة ملمح إعجازي من إعجازاتها. وهو قوله تعالى:﴿يس﴾[٣] إذ "تحير المفسرون في محل هاته الحروف الواقعة في أول هاته السور وفي فواتح سور أخرى عدة جميعها تسع وعشرون سورة ومعظمها في السور المكية"[٤]

والمتعارف لدى السلف أن مدلولات لفظة "يس" ثلاثة [٥]:

١. يس : إنسان [٦].

---

(١) ينظر : البنيوية وعلم الاشارة ، ترنس هوكز : ٧٤ .

(٢)سورة اللهب دراسة بلاغية، أحمد فتحي رمضان، مجلة آداب الرافدين، العدد ٢١، لسنة ١٩٩٨: ٢٠٢

(٣)سورة يس، الآية:١

(٤) التحرير والتنوير: ٢٠٦/٢٢

(٥)معجزات قلب القرآن، هاشم محمد سعيد دفترار: ٢٨.

(٦)روي عن إبن عباس رضي الله عنهما. عكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عتيبة أنه بمعنى يا إنسان. في لغة طي، وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٥٦٣/٣، تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: ٣٠٠/٣، صفوة التفاسير: ٦/٣، ويقول أبو السعود العمادي في تفسيره، إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم: ٢٤٧/٤، يقول "ولعل أصله يا أنيسين فاقتصر على شطرة كما قيل من الله في ايمن الله"، ينظر الكشاف: ٥/٤

٢. يس : لفظ مدلوله رمزي خاص موجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم [١]

٣. يس : علم للسورة[٢]

وكون لفظة يس مشتملة على مدلول رمزي خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المدلول الثاني. وكونها علماً للسورة وهو المدلول الثالث لا ينافيان المدلول الأول الذي هو إنسان[٣].

وعلى ذلك يتجلى عمق المعنى القصدي بهذا اللفظ من خلال الدلالة المطلقة وإتساع مدلول هذا اللفظ. إلا أن هذه المدلولات الثلاثة متعالقة تأتي من تتابع وتدرج دلالي. (وهي من قبيل التوسعة اللغوية في المدلولات المسماة بالاشتراك اللفظي[٤] .

وكما نقرر سلفاً فإن دراسة الدلالة لا تقف عند الكلمة بل من خلال الجملة والسياق الذي ترد فيه. فيستلزم الولوج في اتساق المماثلة الدلالية الإنطلاق من النسق الأول، أي الآيات الأولى في السورة.

يقول تعالى: ﴿ يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ "[٥]

فلو ذهبنا الى ان "يس" من أسمائه –صلى الله عليه وسلم – خاصة وأن هذه يست المرة الوحيدة التي تبدأ سورة بإسم من أسمائه عليه الصلاة والسلام فهناك مثلاً قوله تعالى خطاباً له صلى الله عليه وسلم ﴿ طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [٦] فإن هناك

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٢٤٧/٤، صفوة التفاسير: ٦/٣، تنوير الأذهان: ٣٠٠/٣. ويقول صاحب التحرير والتنوير: (ومن الناس من قال: أن يس إختزال: ياسيد، خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم ويوهنه نطق القراء بها نون): ٣٤٤/٢٢

(٢)إرشاد العقل السليم: ٢٤٧/٤، تنوير الأذهان: ٣٠٠/٣

(٣)معجزات قلب القرآن: ٢٨٠

(٤)المصدر نفسه: ٢٨٠

(٥) سورة يس ، الآيات: ١–٦.

(٦)سورة طه، الآيتان: ١–٢ .

إشارة الى المصطفى صلى الله عليه وسلم ثم عودة إليه عليه الصلاة والسلام. وهنـــاك إشارة أخرى الى القرآن الحكيم ثم عودة إليه على أثر العودة للحديث عنـــه صـــلى الله عليه وسلم وهناك عودة ثالثة أيضاً من نصيب القرآن الحكيم، ثم يفيض الحديث بعد ذلك عن الغافلين من قومه عليه الصلاة والسلام، وبما ان المماثلة الدلالية تراعي العودة في الحديث الى الموضوع السابق وبالقول أن (يس) من أسمائه صلى الله عليه وسلم تكون آيات الإبتداء الاثنتاعشر داخل إطار معظم القضايا التي نتحدث فيها السورة [١]. علـــى إعتبار أن السورة تتحدث في ست قضايا كما يرى أحد الباحثين المحدثين وهو حـــسن محمد باجودة [٢] وهذه القضايا الست على النحو الآتي:

١.الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

٢.معجزته الكبرى الخالدة، القرآن الكريم.

٣.الفئة القليلة أول الأمر المؤمنة من أتباعه عليه الصلاة والسلام.

٤.الفئة الكثيرة أو الأمر الكافرة من قومه عليه الصلاة والسلام.

٥.قضية البعث بعد الموت.

٦.حث المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم المنكرين للبعث على تصحيح موقفهم الخاطيء.

اذ ان هذه القضايا تمثل العناصر الرئيسة التي تتحرك ضمن نسق المماثلة الدلالية .

واولى تجليات المماثلة الدلالية تظهر عن طريق أمثلة متتالية تلتقي هذه الأمثلـــة من خلال التشابه في الدلالة والمحتوى وتترابط في كونهـــا ذات مقـــصديات وأهـــداف موحدة حتى أنها تبدو متوازية توازياً دلالياً واضحاً وأول ما نرصده مـــن ذلـــك قولـــه تعـــالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا

(١)ينظر : تأملات في سورة يس قلب القرآن: ١٤-١٥

(٢)ينظر: تأملات في سورة يس قلب القرآن: ٧-٨ .

فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ، قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ، قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ، قَالُوا طَائِرُكُمْ مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ، وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ، وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ، إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ، إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ، قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ، وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ، إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (١).

وقد إرتكز نسق المماثلة الدلالية في هذا المثل على صورة التشبيه التمثيلي، وهذا المثل يحمل قصة قائمة على الصراع بين الإيمان والكفر كما هو معتاد في قصص القرآن الكريم "فالإيمان يحرضه على الصلاح وسعيه في الهداية والإصلاح ودعوته الى العقيدة الصحيحة، ومنطقه من التدليل عليها، وإستنكاره الضلالات والأوهام وثباته على خالص المبادئ وإستشهاده في سبيلها وحسن خاتمته وموفور جزائه كل ذلك تمثله شخصية الرجل المؤمن الذي تحدثت عنه آيات هذا المثل.

والكفر بلجاجته وعناده وإصراره وتكذيبه وتطاوله، وتهديده، وتعطشه الى الدماء، وإغتياله أرواح الهداة، وسرعة إنتقام الله منه وأخذه أخذ عزيز مقتدر" (٢) وكل ذلك تمثله الفئة الكافرة التي كذبت الرسل.

---

(١) سورة يس، الآيات: ١٣-٢٩.

(٢) الأمثال في القرآن، محمود بن الشريف: ١٣٣.

ثم ضرب المثل بالأعم وهم القرون الذين كذبوا فأهلكوا. والرثاء لحال الناس في إضاعة أسباب الفوز كيف يسرعون الى تكذيب الرسل[١]، وجاء ذلك بأسلوب فكثف وموجز وهو قوله تعالى: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ، أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [٢]

ويمكن القول أن هذه الآيات هي تعقيبية على ماقبلها [٣]وقد جاءت المماثلة الدلالية هنا عن طريق "توازي مماثلة إيقاع الفكرة طالما أنه توازٍ يعتمد الإحالة الى دلالة واحدة باعتماد تقنية أسلوبية تمخضت عن هذه المماثلة الدلالية وتجلت في تحقيق (المعادل الموضوعي) [٤]الذي يكون فيه التعبير عن الفكرة غير مباشراً بل من خلال أشياء أخرى تعادلها أو تنوب عنها في نقلها الى الملتقي[٥].

وبناءً على ذلك فإن هناك مماثلة دلالية واضحة بين ذلك المثل الذي حوى قصة أهل القرية والمرسلين والرجل الناصح من جهة. وبين ما جاء تعقيباً على كل ذلك من الآيات التي تلت القصة من جهة أخرى. غير ان هذه الأنساق من المماثلة لم تكتمل ما لم نأخذ بالحسبان بواعث ضرب المثل الذي تحقق في الآيات السابقة لقصة أهل القرية ومن ثم التعقيب على ذلك بالآيات التي تلت القصة، التي تمحورت حول إنقسام القوم الذين أرسل إليهم محمد صلى الله عليه وسلم الى قسمين " قسم لم تنفع فيهم النذارة، وقسم اتبعوا الذكر وبين ان اكثر القوم حقت عليهم كلمة العذاب أي علم الله أنهم لا

---

(١)التحرير والتنوير: ٣٤٣/٢٢.

(٢)سورة يس، الآيات: ٣٠-٣٢.

(٣) ينظر: تأملات في سورة يس قلب القرآن: ٤٧.

(٤)ينظر: سورة الكهف دراسة أسلوبية: ٥٤-٥٥.

(٥)ينظر : شعر محمود حسن إسماعيل دراسة أسلوبية : ١٢٣.

يؤمنون بما جبل عليه عقولهم من النفور عن الخير، نحقق في علمه وكتب أنهم لا يؤمنون)[١] وقد دل على ذلك قوله تعالى :

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ، لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ، وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ، وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [٢].

فالقرآن الكريم شبه بين حاليين الأول حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع القوم الذين أرسل إليهم والثاني حال أهل القرية والمرسلين والرجل الناصح الذي آمن بالرسل. فهناك موازاة دلالية بين الرسول صلى الله عليه وسلم و"الرسل الثلاثة الذين أرسلهم عيسى عليه السلام الى أهل أنطاكية" [٣] من جهة وبين كفار مكة وأصحاب القرية المذكورة الذين كذبوا الرسل من جهة ثانية ولا تخفى كذلك الموازاة الدلالية بين الفئة القليلة التي إتبعت النبي صلى الله عليه وسلم من بداية الدعوة والرجل الذي إتبع المرسلين من بين أهل القرية. ويتضح ذلك من خلال التفسير إذ أن معنى "إضرب لهم مثلاً ... " أجعل أصحاب القرية والمرسلين إليهم شبهاً لأهل مكة وإرسالك إليهم[٤]. وعلى هذا الأساس وإستناداً الى التوازي الدلالي القائم بين الآيات الكريمة[٥] فإن المماثلة الدلالية تتجلى بشكل واضح فهي مماثلة متوازية : دعوة الى الحق وكفر وإنكار/ فئة

---

(١)التحرير والتنوير : ٢٢/ ٣٤٨ – ٣٤٩.

(٢)سورة يس، الآيات : ٦ – ١١

(٣)ينظر: التحرير والتنوير: ٣٥٩/٢٢

(٤)المصدر نفسه: ٢٢/ ٣٥٨

(٥)ينظر : سورة يس، الآيات : ٦-٢٩

قليلة مؤمنة وفئة كثيرة كافرة. غير ان التعبير يختلف بين الممثل والممثل به لكن الفكرة واحدة وهي المحور الأساسي الذي تدور حوله العناصر الأخرى التي تمثل طرفي الصراع بين الحق والباطل. ومن الجدير بالإشارة أن التشابه بين الشخصيات ومواقفها يعزز نسق المماثلة إذ يتضح القصد الرمزي من خلال البحث في هذا التشابه القائم بين شخصية وأخرى مقابلة لها ضمن سلسلة التوازيات التي تتشكل منها المماثلة الدلالية وهنالك أوجه تشابه مثلاً بين شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وموقفه من كفار مكة وشخصية الرجل الذي جاء من أقصى المدينة فإتبع المرسلين. على إعتبار أن (يس) لفظ مدلوله رمزي خاص موجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم – كما ذكرنا سلفاً – وتداخل هذا المدلول مع مدلول آخر هو (إنسان) ومن هنا تتجلى أوجه التشابه، إذ أن إطلاق لفظة (يس) لمعنى إنسان على رسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف تحقيق معجزة أفاض علماء الحضارة المعاصرون[١] والقدماء[٢] الحديث عنها، تلك المعجزة هي تحقق مجيء الإنسان الكامل الذي ينشدونه والإنسان الكامل هو الذي يتحقق منه الكمال الإنساني بشطريه المادي والروحي[٣].

إن البحث عن الإنسان الكامل قديماً وحديثاً قد تحقق في رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحققه فيه هو إحدى معجزات القرآن التي ابتدأ بها هذه السورة (يس).

وهذه أعماله وأمجاده وسيرته وشمائله وآثاره العظيمة الخالدة التي هي آية تحقق كماله الذي هو المثل الأعلى[٤] . وإذا عدنا الى الرجل (الذي جاء من أقصا المدينة ناصحاً اميناً سنجد صفة الكمال تنطبق عليه من ناحية الرجولة. وهذا هو القصد من تنكيره

---

(١)وعلى رأسهم (أنشتاين)، ينظر: معجزات قلب القرآن: ٢٨١.

(٢)أنشد (ديوجين) الفيلسوف اليوناني قديماً الإنسان الكامل، ينظر: معجزات قلب القرآن: ٢٨١.

(٣)معجزات قلب القرآن: ٢٨١.

(٤) المصدر نفسه : ٢٨١ .

في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١) . نكّر مع أنه كان معلوماً معروفاً عند الله تعالى – ولكن التنكير أفاد" أعظام صفة رجولته الكاملة" (٢) أي رجل كامل في الرجولية (٣). ومن هذا تتضح اولى أوجه التشابه بين الشخصيتين.ومن أوجه التشابه الدعوة الى الحق في مجتمع مكذب بالرسل بعيد عن سبيل الرشاد﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾(٤) فالرسول صلى الله عليه وسلم نذير لهؤلاء القوم من الله تعالى، أما شخصية الرجل فإن سياق القصة لا يهدف الى تعريفها بإسمها إذ أن عناية السياق تنصب على صفة الاستجابة للدعاة والسعي بإيمان راسخ الى تبليغ الحق الذي استفز في نفس ذلكم الرجل فحاج قومه بحقائق الألوهية والعهودية لله وحده(٥). فضلاً عن التفاني من أجل الغاية السامية إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تحمل من أذى المشركين ما لا يمكن وصفه في سبيل الدعوة إما الرجل فقد جاء بنفسه من اجل كلمة الحق، إذ وثب عليه قومه وثبة رجل واحد فقتلوه (٦) ، وبذلك تلتقي الدلالات ويصبح القول بوجود المماثلة الدلالية المعتمدة على التوازي أكثر تجلياً ومن أنساق المماثلة الأخرى التي تعتمد على التوازي الدلالي ما نجده في قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (٧) .. إذ أن ذلك عطف على القصة "فإضرب لهم مثلاً .." فإنه ضرب لهم مثلاً لحال

---

(١) سورة يس، الآية: ٢٠.

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ٢٦/ ٥٤-٥٥.

(٣) المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، فتحي احمد عامر: ٣١٠.

(٤) سورة يس، الآية: ٦.

(٥) ينظر: البنى والدلالات في لغة القصص القرآني: ١٢٢.

(٦) تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٥٦٨.

(٧) سورة يس، الآية: ٣٣.

أعراضهم وتكذيبهم ... وإنكارهم للبعث، ثم أعقب ذلك بالتفصيل لإبطال ما اشتملت عليه تلك الإعتقادات من إنكار البعث ومن الإشراك بالله [١] وإبتدىء بدلالة تقريب البعث لمناسبة الإنتقال من قوله ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ [٢] فالمماثلة المتوازية قائمة بين التأكيد على حقيقة البعث وإحياء الأرض الذي هو مناط الدلالة على إمكان البعث بعد الموت[٣]. وإستكمالاً لهذا التوازي، وبعد الاستدلال بالمكان الكلي[٤] وهو الأرض جاء الاستدلال بالليل والنهار أي الزمان الكلي في قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [٥] "والمتأمل في صورة "السلخ" يجد فيها إيحاءات إضافية دالة على قدرة الله تعالى من إحياء الموتى فالسلخ يعني الموت وإقترانه بظاهرتي "الليل والنهار" يومي بقدرته سبحانه وتعالى أن يبدع الحياة وينشئها بعد الموت والفناء[٦]، فهذه الآية هي دليل آخر على حقيقة البعث، وبذلك فإن دلالة حقيقة البعث بعد الموت في هذا الأسلوب القرآني ترددت في النص لتشكل لدينا معادلات موضوعية ضمن المماثلة المتوازية.

وإستكمالاً لسلسلة التوازي الدلالي ضمن نسق المماثلة فإن هناك موازاة دلالية بين بداية السورة ونهايتها على اعتبار أن النص وحدة متكاملة تحتوي على أنساق مترابطة بعلائق وشيجة من بداية النص حتى نهايته. ففي بداية السورة تحدي بإعجاز القرآن بالحروف المقطعة، وبالقسم بالقرآن ووصفه بالحكيم والمقصود من ذلك تحقيق

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير: ١٢/٢٣ وما بعدها.

[٢] سورة يس، الآية : ٣٢.

[٣] ينظر : التحرير والتنوير : ١٢/٢٣.

[٤] ينظر : المعاني الثانية في الأسلوب القراني: ٣١١.

[٥] سورة يس، الآية : ٣٧.

[٦] الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، رسالة ماجستير: ٢٢٨.

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. وفي أواخر آياتها رد العجز على الصدر فعاد الى تنزيه القرآن الكريم عن أن يكون مفترى صادراً من شاعر بتخيلات شعراء [1].. وبذلك تكون المماثلة الدلالية سمة أسلوبية بارزة في السورة الكريمة ظهرت في أنساق مترابطة وأدت دوراً كبيراً في خدمة أهم أغراض السورة ومقاصدها التي من أهمها تأكيد أمر الرسالة وأسس العقيدة.

(1) التحرير والتنوير: ٣٤٣/٢٢.

المبحث الثاني

المفارقة الدلالية :

جاء في اللسان تحت مادة (فرق) : الفَرْقُ : خلاف الجمع، يفرُقُه فْرقاً، وقيل فَرَقَ للصلاح فَرْقاً، وفرَّق للافساد تفريقاً، وانفرق الشيء وتفرّق وأفترق ..... والفرقُ : تفريق ما بين الشيئين حين يفترقان ... والفرقان : القرآن. وكل ما فُرِق به بين الحق والباطل، فهو فرقان"[١].

ويمكن القول أن هذا النص يكفي لأنه يشمل تقريباً ما ورد في المعاجم الأخرى [٢] أن العرب لم يؤسسوا لمصطلح المفارقة، لا بل نستطيع ان نعمم مقولة مفادها ان الدراسات العربية القديمة اللغوية والبلاغية على وجه الخصوص لم تذكر هذا المصطلح بتاتاً في أطروحاتها المعرفية، ولكن على الرغم من ذلك لانعدم ان سلسلة من الأنماط المفارقية، قد ذكرت في الدراسات العربية، ((وخصوصا البلاغية منها، كالسخرية، والتهكم، والتورية، والهجاء والتعريض، والمتشابه، والتشكك، والمدح بما يشبه الذم، والعكس وكل هذه الأشكال البلاغية تندرج تحت ما يسمى بالمفارقة اللفظية))[٣] والتي تعرف بأنها : نمط كلامي يكون المعنى المقصود منها مناقضاً، أو مخالفاً للمعنى الظاهر إذ ينشأ هذا النمط من كون الدال يؤدي مدلولين نقيضين الأول مدلول حرفي ظاهر، والثاني مدلول سياقي خفي، فالمفارقة تشتمل على (علامة) توجه إنتباه المخاطب نحو التفسير السليم للقول[٤]. وعلى الرغم من تعدد تعريفات المفارقة واختلاف وجهات النظر بين المنظرين حول هذا المصطلح حتى ليبدو مصطلح متشابك مطلق الدلالة إلا

---

[١] لسان العرب، إبن منظور: ٢٩٩/١٠، ٣٠١، ٣٠٢ مادة (فرق).

[٢] ينظر مثلاً: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤٩٤/٤، ٤٩٥، مادة (فرق).

[٣] المفارقة الروائية – الرواية العربية نموذجاً، صالح محمد عبدالله محمد، رسالة دكتوراه :٨.

[٤] ينظر: نظرية المفارقة، خالد سليمان، مجلة أبحاث اليرموك، العدد ٢، السنة ١٩٩١ : ٦٨، ٦٩.

أنه هناك إتفاق من الجميع في نقطة جوهرية واحدة مفادها "أن المفارقة شكل من أشكال النقيضة" [١].

ومن خلال هذا التعريف يتجلى دور التناقض المهم في خلق المفارقة إذ أن هذا العنصر "يعد من أهم الآليات المنتجة للمعنى المفارقي، والمشكل للبنية الأدبية المفارقية، ذلك المفارقة تعني أساساً، وفي صميم مفهومها الاصطلاحي، التناقض الظاهري بين معنيين، الأول سطحي غير مقصود والثاني عميق مقصود، والتناقض لا يتمظهر على المستوى الشكلي للغة فحسب، وإنما يطال مفعوله العناصر الرئيسة المكونة للبنية، ((والتناقض نوعان: أحدهما عقلي نستشفه من خلال تعارض المدلولات للدالة الواحدة، والثاني لفظي ظاهري يولده الدال اللغوي من خلال تعارض العلامات، وتعدد الدلالات [٢]، ان المفارقة "أخذت تشير الى خصيصة أسلوبية وتقوم بدورها في الأدب" [٣] وبدات تنتفي العلاقة التناقضية على صعيد البنية الدلالية العميقة، لأن المهم فيها تجاوز المعنى الظاهري وصولاً للمعنى الخفي المقصود الذي يشكل القمة الانزياحية المؤثرة في بلورة السمات الأسلوبية، "وظاهر اللفظ يسمى بالمعنى الأول أما المعنى الثاني فيمكن تسميته بمعنى المعنى وهو الغرض المقصود" [٤] ويجب التمييز هنا بين التناقض وعنصر آخر وهو التضاد الذي يعد أيضاً من أهم آليات المفارقة في "التضاد الحاصل بين قطبي المعنى المفارقي لا يؤدي بالضرورة الى حدوث المفارقة،

---

(١)المفارقة وصفاتها، دي سي ميوك : ٣٥، ٣٦

(٢)المفارقة الروائية –الرواية العربية نموذجاً–: ٣٨.

(٣)المفارقة في متشائل أميل حبيبي "الوقائع الغريبة في إختفاء سعيد أبي النحس"، بسام قطوس، مجلة مؤته، المجلد ٧، العدد ١، السنة ١٩٩٢: ٨٠.

(٤)دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني: ٢٠٢ – ٢٠٣

في حين أن التناقض يحقق المعنى المفارقي بقصد أو بدون قصد، أما الفرق الآخر، فنفهمه من جهة أن التضاد والتناقض هما ضربان من التقابل اللفظي والمعنوي ولكن الفرق يكمن في صيغة التقابل ذاتها [١] هي التي تحدد (("فالتقابل بواسطة التناقض لا يجعل بين الحدين وسطاً، وأما التقابل بواسطة التضاد فيجعل بين الحدين وسطاً))[٢].

أما المفارقة الدرامية فلا ذكر لها إطلاقاً عند العرب القدامى، "كونها تنتمي لمجال كان غائباً عن البيئة العربية، الا وهو المسرح" [٣] ، والمفارقة الدرامية هي مفارقة موقف إذ تعتمد على (الحالة أو الحدث) في إطار تلك المفارقة التي تثير مسائل تاريخية أو فكرية مضمونية وتكوِّن صفة مأساوية او فلسفية [٤] .

وأول ما يتجلى في سورة يس من انساق المفارقة الدلالية هذا النوع من المفارقة – أي الدرامية – الذي يرصد من خلال قصة أصحاب القرية مع المرسلين والرجل المؤمن الناصح. فالقصة مليئة بالمفارقات لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ، اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ، وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ، إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ، قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ، وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ، إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [٥] ".

---

(١)المفارقة الروائية – الرواية العربية نموذجاً : ٤٢.

(٢) في سيمياء الشعر القديم – دراسة نظرية و تطبيقية ، محمد مفتاح:٣٧.

(٣) المفارقة الروائية – الرواية العربية نموذجاً: ٨

(٤)ينظر: المفارقة وصفاتها: ٧٨،٨١.

(٥) سورة يس ، الآيات : ٢٠-٢٩ .

فالمفارقة في هذا السياق هي مفارقة درامية تجسدت في الصراع بين قطبي الإيمان والكفر وبين الحق والباطل ومن ثم إنتصار الإيمان والحق وعقوبة الكفر ونهايته المأساوية، إذ أن الله تعالى "يخبر أنه إنتقم من قوم هذا الرجل بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه ويذكر عز وجل أنه ما إحتاج في إهلاكه إياهم الى جند من الملائكة عليهم" [١] وهذا تحقير لهم وتصغير لشأنهم [٢]بل "أن الله تعالى كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لاهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق[٣].

وأن إفتتاح قصة عقاب القوم الكافرين في الدنيا تبقى صورة من صور الإنتقام تمهيداً للمقصود من أنهم ما حل بهم إلا مثل ما حل بأمثالهم من عذاب الإستئصال أي لم ننزل جنوداً من السماء مخلوقة لقتال قومه ... وما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة من ملك واحد أهلكتهم جميعاً [٤] لذلك يظهر المشهد من القصة السابق لمشهد هلاكهم مشهداً ناطقاً تجسد في مجيء الرجل من المدينة ونصحه إياهم بإتباع المرسلين لأن أتباعهم هو الذين الحق وتبرز في هذا المشهد الشخصيات من طرفي الصراع كما يبرز عنصر المكان وهو (أقصى المدينة) أما ((المشهد الذي تلاه وهو مشهد هلاك أصحاب القرية فقد ظهر صامتاً)) [٥] صور كيفية هذا الهلاك بصورة تميزت بالايجاز وأوضحت سرعة هذا الهلاك لهؤلاء القوم ومصيرهم المأساوي الذي آلوا إليه فاشتمل هذا المشهد على نوع من المفارقة الدرامية وهي "مفارقة القدر التي تمثل نوعاً مميزاً وأصيلاً للمفارقة

---

(١)تفسير القرآن العظيم : ٥٦٩/٣.

(٢) صفوة التفاسير: ٣/ ١١.

(٣)الكشاف: ١٢/٤.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٥/٢٣

(٥) ينظر: الشكل القصصي في القرآن الكريم، دراسة جمالية، نبهان حسون عبدالله السعدون، رسالة ماجستير: ٥١٢.

الدرامية ضمن إطار نسقها الشمولي العام، والتي تشير الى نوع من التصادم بين الرغبة والمصير بين رغبة الإنسان في العيش، وكفاحه المستمر من أجل البقاء، وبين المصير المأساوي الذي يؤول إليه في نهاية المطاف، حيث ينتظره الموت كقدرٍ ماحقٍ لا راد له. وتكون الحياة ضمن هذا التصور المفارقي هي نفسها مفارقية" [١]، والقارئ حينما يراقب الشخصيات بإمكانه أن يتوقع الصدمة التي ستتلقاها هذه الشخصيات كذلك فإن الأسلوب القرآني "لا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم، مما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم .. ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل" [٢]مما يجعل المفارقة الدرامية أكثر تجلياً ووضوحاً يضاف الى ذلك أن المفارقة اللفظية ترصد داخل سياق هذه المفارقة الدرامية من خلال التصوير الذي تجسد في الاستعارة كما نجد المفارقة في قوله تعالى:﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ [٣] والخمود: إنطفاء النار، أستعير للموت بعد الحياة المليئة بالقوة والطغيان[٤] ، فشبهوا بالنار الخامدة، رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة في الحركة والإلتهاب، والميت كالرماد [٥] ، وذلك : "على سبيل الإستعارة المكنية ويجوز أن تكون الاستعارة تصريحية تبعية في الخمود بمعنى البرودة والسكون لأن الروح لفزعها عند الصيحة تندفع الى الباطن دفعة واحدة، ثم تنحصر فتنطفيء الحرارة الغريزية لإنحصارها[٦].

---

(١)المفارقة الروائية –الرواية العربية نموذجاً-: ١٠٤

(٢)في ظلال القرآن: ١٩/٧

(٣)سورة يس، الآية: ٢٩

(٤)التحرير والتنوير: ٦/٢٣

(٥)تنوير الأذهان: ٣/ ٣٠٧، ٣٠٨

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، محمود صافي: ٦/١١

فإذا كانت الصورة البلاغية أنزياحاً، فإن صيغة استعمالها لا تخلو من تناقض، إذ ان استعمالها يعد انزياحاً [١] فالتناقض هو الذي أوجد المعنى المفارقي في هذه الاستعارة.

ويقول الجرجاني في تعريفة للاستعارة "أما الإستعارة فهي ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل[٢]" أما النظريات الحديثة التي نظرت للاستعارة ومن ضمنها النظرية التفاعلية فنرى أن "للاستعارة هدفاً جمالياً وتشخيصياً، وتجسيدياً، وتخيلياً وعاطفياً ... وهكذا يعد السياق ركناً أساسياً من أركان هذه النظرية[٣] ، ويما أن "المفارقة تؤكد في أحد مفهوماتها على أنها صفة أسلوبية مجازية تعمل على تحريف مستوى الكلام الاحالي كي يتحرر من مرجعيته الحقيقية من خلال الوسائط المجازية كالاستعارة والكناية والتشبيه، التي تتجاوز مستوى المدلول الواحد، إلى المداليل المتعددة والمتضادة في آن واحد[٤]فهذا دليل على العلاقة الوشيجة بين الانزياح والوسائط المجازية وأهما الاستعارة، "لأن الاستعارة ترتبط بالمجاز من خلال علاقة خصوص وعموم فكل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة [٥].

ويمكننا أن نربط بين الاستعارة وما يسمى بـ "الانحراف الأسلوبي" بما هو إنحراف عن معيار قانون اللغة ولكنه ليس إنحرافاً فوضوياً، وإنما هو محكوم بقانون ... وتقوم الاستعارة في جزء كبير منها على المفارقة. إذ تقوم الثانية على التناقض الظاهري على

---

(١)بنية اللغة الشعرية، جان كوهن: ٤٤.

(٢) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: ١٤، ١٥

(٣)النظرية التفاعلية للإستعارة، يوسف أبو العدوس، المجلة العربية للثقافة، العدد ٣٢، السنة ١٦، ١٩٩٧: ٢٢٣.

(٤)المفارقة الروائية – الرواية العربية نموذجاً-: ٥٨.

(٥)أسرار البلاغة: ٣٤٥، ٣٤٦

سبيل المجاز، ولكن بالفحص والتأمل يتضح أن لهذه الإستعارة قيمة أسلوبية[١]. وأول ما نرصده من ذلك في سورة يس قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ [٢].

فالمفارقة اعتمدت الاستعارة التمثيلية التي رسمت صورة بالغة السخرية والتهكم بالمشركين. (إذ مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى اعوائهم، بأن جعلهم كالمغلوبين المقمحين، في أنهم لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدين، لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله. فقد شبههم بمن أحاط بهم سدان هائلان فغطيا أبصارهم فهم محبوسون بالجهالة ... أو كأنهم وقد حرموا نعمة التفكير في القرون الخالية [٣] ويقول إبن كثير في تفسير هذه الآية : ((إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء كمن جعل في عنقه غل وجمعت يداه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسهمقمحاً)) [٤] والاقماح: رفع الرأس وغض البصر، يقال أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقه [٥]. يقال: أقمح البعير إذا رفع رأسه وإمتنع الشرب[٦] وأشرب

---

(١)جماليات الأسلوب والتلقي، دراسة تطبيقية، موسى ربابعة: ١٥

(٢) سورة يس ، الايتان : ٨-٩ .

(٣)التحرير والتنوير:٢٢/٣٥٠، ٣٥١، وينظر: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ١١/ ٢٩٣-٢٩٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم : ٣/ ٥٤٢.

(٥)لسان العرب: ٢/ ٥٦٦، ٥٦٧ ، مادة (قمح).

(٦)ينظر: المصدر نفسه: ٢/ ٥٦٧، مادة (قمح).

فأتقمح أي فأروى حتى لا أقدر على الزيادة فارفع رأسي فعل المقامح[١] ويتجلى أسلوب السخرية والتهكم من خلال تصويرهم مغلولين في أعناقهم بأطواق من حديد، تجعلهم لا يستطيعون أن يلتفتوا يمنة ولا يسرة، ولا يستطيعون أن يومئوا الى أسفل ... فضلاً عن تشبيههم بالإبل حين تروى من الماء فترفع أعناقها ورؤوسها إلى أعلى في تصويرهم هذا ممنوعون من الرؤية للاهتداء بالدلائل والآيات بسبب تلك الأغلال النفسية والفكرية والعقلية التي كبلوا بها أنفسهم فهم لا يهتدون[٢]. فالسياق القرآني جسم هذه الحواجز المعنوية كأنما هي موانع حسية لأنها في هذه الصورة أوقع وأظهر[٣]. فالمفارقة قائمة أيضاً تجسيم المعنويات وتصويرها حسياً مما يجعل الصورة قريبة جداً في ذهن المتلقي. ولننتقل الى الآية الكريمة التي تلي هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ [٤] هذا ارتقاء في حرمانهم من الاهتداء ... فمثلت حالهم بحالة من جعلوا بين سدين، أي جدارين : سداً أمامهم وسداً خلفهم ... ومانع الايمان : اما أن يكون في النفس، وإما أن يكون خارجاً عنها. ولهم المانعان جميعاً : اما في النفس فالغل واما من الخارج فالسد فلا يقع نظرهم على انفسهم فيروا الآيات التي في أنفسهم لأن المقمح لايرى نفسه ولا يقع نظرهم على الآفاق لأن من بين السدين لا يبصرون الافاق فلا تتبين لهم الآيات[٥]. والمفارقة قائمة على الإستعارة التمثيلية التي جعلت من الحواجز المعنوية حواجزاً حسية هي السدود عن طريق التجسيم [٦] كما اشتركت الكناية هنا مع الاستعارة في خلق المفارقة ضمن نسيج قرآني

---

[١] أساس البلاغة، الزمخشري: ٥٢٢.

[٢] ينظر: الكناية في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، رسالة دكتوراه: ٢٣٢.

[٣] التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ٧٠.

[٤] سورة يس الآية: ٩.

[٥] ينظر : التحرير والتنوير : ٢٢/٣٥٠، ٣٥١.

[٦] ينظر : الجدول في إعراب القرآن : ١١/ ٢٩٤.

حكيم إذ تلمح الكناية في المعنى المكنى عنه وهو عدم إيمانهم ولكن المعنى لا يقف عند ذلك إذ نجد من المعاني الثانية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتهدئة روعه، حتى لا يظن أنه مقصر في إنذارهم، وفيه تقوية التذاذ المؤمن بالنعيم كما لا تتبين لذة الصحيح إلا عند رؤية المريض [١] اذ أن بلاغة الإسلوب الكنائي تعتمد على النسيج الداخلي الذي يربط بين المعنيين الأصلي والمقصود[٢].

ولننتقل الى آية أخرى من السورة الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [٣] شبه إزالة ضوء النهار وانكشاف ظلمة الليل بسلخ الجلد عن الشاة، وإستعار إسم السلخ للإزالة والإخراج واشتق منه نسلخ بمعنى نخرج من النهار بطريق الإستعارة التصريحية [٤] والإستعارة أبلغ لأن السلخ إخراج الشيء من لابسه وعسر إنتزاعه منه لإلتحامه به[٥].

والإنسلاخ أبلغ من الإنفصال لما فيه من زيادة البيان[٦]. فشبه سبحانه وتعالى إنفصال الليل من النهار بسلخ الجلد من الشاة، وهذا يدلنا على عظم إتصالهما وشدة إلتحامهما[٧] وفي هذا التصوير المحس الملموس نجد عملية (السلخ) قريبة لإدراك الإنسان فهي مشاهدة مكررة وعملية خروج النهار من الليل من الظواهر المكررة يومياً وفي ذلك تقابل فني وجمال في التعبير[٨]. فصار المعنى :

---

[١] المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: ٤٢٣.

[٢] الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، محمد الامين احمد: ١١٣.

[٣] سورة يس، الآية: ٣٧.

[٤] صفوة التفاسير: ٢٠/٣.

[٥] النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٨٩.

[٦] البرهان في علوم القرآن، الزركشي: ٤٩٢/٣، ٤٩٣.

[٧] ينظر المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: ٣٥٦.

[٨] الاستعارة في القرآن الكريم: ٦٩.

الليل آية لهم في حال إزالة غشاء نور النهار عنه ... فشبه النهار بجلد الشاة يغطي ما تحته منها كما يغطي النهار ظلمة الليل في الصباح. وشبه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد نحو الشاة فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان المسلوخ منه جلده[1]، أي أن المستعار منه السلخ وهو كشط الجلد عن الشاه والمستعار له كشف الضوء من مكان الليل وهما حسيان[2]. فهذه الصورة الاستعارية هي التي تخلق المعنى المفارقي من خلال تشبيهاتها التالية

الليل ← جسم الحيوان

النهار ← الجلد الذي يغطي هذا الجسم

كشف النهار وإزالته ← سلخ جلد الحيوان

فالاستعارة كامنة وسيلة لتقريب هذه المعاني وتجسيدها بتلك الصورة الحسية القريبة.

ومن الجدير بالإشارة أن هذه الآية فيها إشارة – كما يرى بعض الباحثين[3] – الى أن الظلام هو الأصل والأساس في الكرة الأرضية ... فلولا وجود الشمس لعاشت الإنسانية في ظلام سرمدي.

---

[1] ينظر، التحرير والتنوير: ١٨/٢٣.

[2] معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب: ١٧٠/١.

[3] ينظر: تأملات في سورة يس: ٥٨، وينظر: معجزات قلب القرآن هاشم محمد سعيد دفنرار: ٣١٧، إلا أن صاحب التحرير والتنوير له مذهب آخر في هذه المسألة إذ يقول: "وإذا كانت الظلمة هي الحالة الأصلية للموجودات فليس يلزم أن تكون أصلية للأرض لأن الظاهر أن الأرض انفصلت عن الشمس نيرة وإنما ظلمة نصف الكرة الأرضية إذا غشيها نور الشمس معتبرة كالجسم الذي غشيه جلده فإذا أزيل النور عادت الظلمة فشبه ذلك بسلخ الجلد عن الحيوان كما قال تعالى في مقابلة في سورة الرعد "يغشي الليل النهار". فليس في الآية دليل على أن أصل أحوال العالم الأرضي هو الظلمة ولكنها ساقت للناس اعتباراً ودلالة بحالة مشاهدة لديهم ففرع عليه "فإذا هم مظلمون": ٢١/ ١٨.

ومن صور المفارقة المتحققة بالاستعارة التصريحية ما نرصده في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ، قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [١] الآية الكريمة تصور لنا مشهداً من مشاهد البعث المروعة وصورة المفارقة هنا تعتمد على إستعارة الرقاد للموت فقد شبه الموت بالرقاد حيث عدم ظهور الفعل والإستراحة من الأفعال الإختيارية[٢] بيد أن دقة المفارقة تتجلى في أن شأن المرقد أن يكون مكاناً هنيئاً مريحاً، أما إستخدامه في التعبير عن حياة البرزخ وما فيها من العذاب فهي مفارقة لفظية أساسها الإستعارة التصريحية[٣] الموحية عن دلالة أسلوبية قوية. من خلال التناقض القائم بين طرفي الإستعارة غير أن هذا التناقض ينتفي حين تتجمع خيوط النواة الدلالية وهي حقيقية البعث ومشاهده المروعة فهؤلاء إذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب بصير عذاب القبر في جنبها مثل النوم فيقولون ذلك[٤]. والإستعارة هنا أبلغ لأن الإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة، وليس كذلك الموت والحياة[٥].

ومن الجدير بالإشارة ان هذا المشهد الغيبي المستقبلي قد صوره الأسلوب القرآني للمتلقي وكأنه قد وقع فعلاً وذلك باستخدام الفعل الماضي المبني للمجهول (نُفِخَ) إذ أن الصيغة الصرفية ماضية والقرينة حالية مستقبلية[٦] فالماضي مستعمل في تحقق الوقوع مثل "أتى أمرُ الله" والمعنى : وينفخُ في الصور، أي وينفخ نافخٌ في الصور وهو الملك الموكل به، وإسمه إسرافيل. وهذه النفخة الثانية [٧].

---

[١] سورة يس، الآيتان: ٥١–٥٢.

[٢] الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٢١/١٢.

[٣] ينظر: نظم الدرر: ١٤٣/١٦.

[٤] ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٥٦/٤١.

[٥] النكت في إعجاز القرآن: ٩٣.

[٦] ينظر: الدلالة الزمنية في الجملة العربية، علي جابر المنصوري: ١٣٥.

[٧] التحرير والتنوير: ٢٣/ ٣٦.

ولننتقل الى هذه الآية من السورة الكريمة كي نرصد ما فيها من المفارقات في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [1] ولكي نبحث في قوله عز وجل لا مناص من الرجوع الى سبب نزول هذه الآيات الكريمة ومما جاء في نزولها "جاء العاصي بن وائل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظمٍ حائل ففته، فقال يا محمّد : أيبعث هذا بعد ما أرم ؟ قال نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت الآيات .. أو لم ير الإنسان ... "[2].

لقد قبح الله عز وجل إنكارهم للبعث تقبيحاً عجيباً، وأدل على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الايادي، وتوغله في الخسة، فالعنصر الذي خلقه منه هو أخس شيء، وهو النطفة المذرة الخارجة من الاحليل الذي هو قناة النجاسة، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءته لمخاصمة الجبار[3]. فبعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً أصبح مجادل في الخصومة مبين للحجة[4].. ﴿خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ فالصورة الحاضرة هنا هي صورة الإنسان (الخصيم) وقد جاء الأسلوب القرآني بهذه الصيغة للمبالغة أي شديد الخصام، و (مبين) من أبان، أي ظاهر في ذلك.

والصورة الماضية هي صورة النطفة الحقيرة، وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان هذه المفارقة في تصرف الإنسان ولهذا جعل الصورتين متقابلتين، وأغفل المراحل بينهما، وهذا ما أفادته (إذا) الفجائية لتؤدي المفارقة الواضحة هذا الغرض الخاص، بالتقابل التخييلي بين حالٍ وحال[5].

---

[1] سورة يس، الآيات : ٧٧ –٨٠.

[2] لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي : ١٨٦.

[3] الكشاف : ٣٠/٤.

[4] ينظر : الجامع لأحكام القرآن: ٥٨/٤.

[5] ينظر : التصوير الفني في القرآن : ٨٤، التحرير والتنوير : ٧٤/٢١.

وبما أن التناقض واضح بين الصورتين المتقابلتين (خلق الإنسان من نطفة) حقيرة مهينة و(الإنسان خصيم مبين) فقد تحققت المفارقة "فالتناقض او التعارض هو السمة السائدة على المفارقة بكل أنماطها[١]" ولأن وجود المفارقة يقتضي أن تتجمع المتناقضات[٢]. فالمعنى الأول إذاً إنسان ضعيف يتحدى قدرة الله في البعث، وبما أن "الغاية من التعبير بالمفارقة هي استشارة المتلقي وتحضير ذهنه، لتجاوز المعنى الظاهري للعبارة والوصول الى المعاني الخفية"[٣] فإن وراء هذا المعنى نموذج عجيب من المعاني الثانية، يكشف عنها نسق النظم في هذه الآية، (أنا خلقناه من نطفة) إشارة الى حقارة أصله ... (فإذا هو خصيم مبين) توحي بأن هذا الإنسان قد وصل الى درجة كبيرة من الفهم فقوله (خصيم) أي ناطق وقوله (مبين) إشارة الى قوة عقله، فهنا اشارتين الى ادنى ما كان عليه (نطفة) والثانية الى أعلى ما وصل اليه (خصيم مبين)[٤]، فالمفارقة هنا تجسدت في معنيين الأول : جحود الإنسان لنعم الله تعالى وإنكاره البعث بعد أن أنشأه وأعطاه الفصاحة والبلاغة وقوة الحجة فضلاً عن النعم الأخرى[٥]. والثاني : القدرة العجيبة والصنع البديع لله عز وجل، "فايداع النطق والفهم أعجب وأغرب من إبداع الخلق والجسم"[٦]. فهذا دليل قاطع وحجة دامغة على حقيقة البعث والنشور. ثم يأتي الأسلوب القرآني بأشد وأبلغ ما يكون من الحجاج[٧] ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ،قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [٨] وجيء بالجواب على

---

[١] شعر محمود حسن إسماعيل : ١٢٧.

[٢] ينظر : المفارقة، نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، العدد ٣-٤، السنة ١٩٨٧ : ١٣٢.

[٣] ينظر : المصدر نفسه : ١٣٢.

[٤] ينظر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: ١٥٠، ٣١٣، ٣١٤.

[٥] ينظر: تفسير سورة يس: ٢٤٥، ٢٤٦.

[٦] المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : ٣١٣.

[٧] البرهان في علوم القرآن: ٢٦٨/٣، النكت في إعجاز القرآن: ١٠٧.

[٨] سورة يس، الآيتان: ٧٨ – ٧٩.

خلاف مراد السائل، لأنه لما قال ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ لم يكن قاصداً مطلب تعيين المجي وإنما أراد الإستحالة، فأجيب جواب من هو متطلب علماً، فقيل له ﴿يحييها الي أنشأها أول مرة﴾ فلذلك بني الجواب على فعل الإحياء مسنداً للمجي، على أن الجواب يصلح لأن يكون ابطالاً للنفي المراد من الاستفهام الانكاري. وهذا الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم[١]. وقوله تعالى: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ الجام للخصم بالحجة: وهو الإحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية، تقطع المعاند له فيه[٢] مما يعزز المعنى المفارقي.

ومن صور المفارقة الأخرى والتي تأتي في إطار التأكيد على حقيقة البعث أيضاً ما نجده في قوله تعالى: ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ [٣] ففي الآية الكريمة إشارة واضحة الى ما في هذا الخلق من غرابة واضحة وهي إيجاد الضد وهو نهاية الحرارة من ضده وهو الرطوبة[٤]. والتضاد في المعنى واضح ... فالشجر الأخضر بما فيه من رواء وماء هو نقيض النار، لأن الماء يطفئ النار، فتخرج النار مما هو مشتمل على النقيض. وهي حالة محسوسة مشاهدة في صورتها، تشير إلى معنى بعيد وهو إخراج الحياة من الموت[٥]. فالذي أخرج من الشجر ناراً لم يكن يُتوقع أن تخرج منه، قادر على أن يخرج الإنسان – الذي يظن المشركون أنه لن يخرج – من مرقده الذي ثوى فيه[٦].

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير: ٢٣/ ٧٥، ٧٦.

[٢] ينظر: البرهان في علوم القران: ٣/٥٢٤.

[٣] سورة يس، الآية : ٨٠.

[٤] ينظر : التحرير والتنوير : ٢٣/ ٧٧.

[٥] ينظر : الكناية في القرآن الكريم : ١١٨.

[٦] ينظر: الطبيعة في القرآن الكريم، كاصد ياسر الزيدي: ٣٤٩.

فبيان أن قدرة الله تعالى وإعادة تقرير ما أبطله المنكرون في هذه الآيــة، فهــي قــدرة عظيمة بجمع النقيضين من خلال أعجب وأغرب برهان في ضــرب عــودين "وهمــا أخضران يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهــو أنثــى فتخــرج النار"[١] فليس التناقض إذن في البنية السطحية حسب بل يتعداها الى البنية العميقــة. إذ يوجد هناك تضاد في المعنى البعيد من الآية وبذلك تكتمل صورة المفارقة التي يمكــن توضيحها بالخطاطة الآتية:

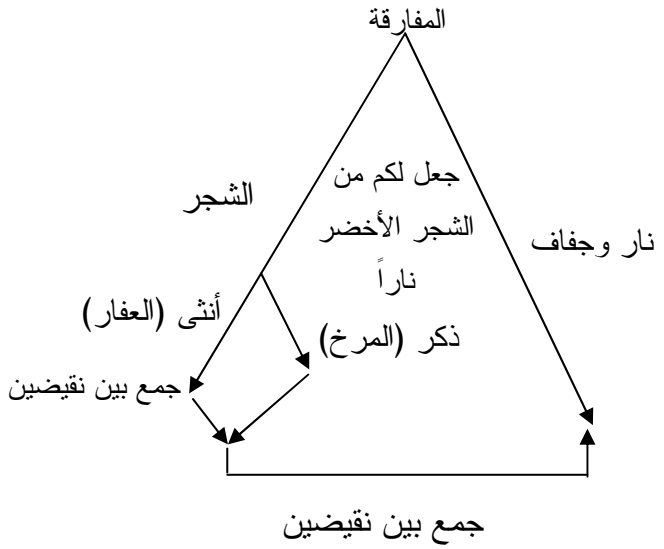

فالأسلوب القرآني قرب الى الأذهان حقيقة البعث والنشور. من خلال الجمع بين المتناقضات بإستخدام صورة من المحسوسات في الطبيعــة القريبــة[٢]. ولكــن هــذه المتناقضات لا تلبث أن تنسجم وتتجمع وتترابط كمــا تقتــضي المفارقــة فــي أحــد مفاهيمها[٣].

---

[١] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ١٨١/١٦.

[٢] ينظر : الطبيعة في القرآن الكريم : ٣٥٠.

[٣] المفارقة وصفاتها: ١٣٤.

وبذلك تكون المفارقة قد مثلت مؤشراً أسلوبياً واضحاً ومنبهاً يستوقف المتلقي. كما أنها سمة أسلوبية ملازمة للنص من أوله إلى آخره مع ما احدثته من انزياحات اسلوبية واضحة.

وخلاصة القول على المستوى الدلالي أن التوازيات التي في النص الكريم قد اعتمدت على التماثل الدلالي الذي يشكل سمة أسلوبية مهمة اسهمت في وحدة النص الكريم في سلسلة مترابطة، ذا أبعاد ومضامين واحدة أما المفارقة الدلالية فقد كشفت عن عمق المضمون في الآيات التي تضمنتها من خلال البحث في البنية العميقة، وهي قد شكلت سمة أسلوبية بارزة تداخلت مع المماثلة الدلالية. وذلك لتحقيق أغراض النص الكريم ومقاصده التي يريدها.